ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

# بايات الأسرة الحسينية بتونس؛ تكوينهم العلمي وأثرهم في الحركة العلمية (1117–1229هـ /1705–1814م)

# Beys of the Husseinian family in Tunis; their scientific formation and impact on the scientific movement (1117-1229 AH / 1705-1814 AD

الدكتورة فوزية لزغم، جامعة ابن خلدون تيارت
lazhist@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/09/09 تاريخ القبول: 2020/09/22 تاريخ النشر: 2020/09/30

**الملخص:**

عرفت الحركة العلمية بتونس خلال الفترة الأخيرة من حكم الحفصيين وبداية العثمانيين تراجعا كبيرا، إلا أنَّ النشاط العلمي أخذ يعود إلى الظهور بها تدريجيا، وظهر بشكل جلي في النصف الثاني من القرن 17م بفضل جهود البايات المراديين، ولما انتقل الحكم إلى البايات الحسينيين منذ سنة 1705م استمروا على نهج المراديين في الاهتمام بالعلم وبرجاله ومؤسساته، ويعود الفضل في ذلك إلى الباي حسين بن علي مؤسس الأسرة الحسينية، والذي أسس بالعاصمة تونس عدة مدارس، واعتنى عناية كبرى بجامع الزيتونة، ولم يكن اهتمامه منصبا على العاصمة فقط بل اهتم بجهات أخرى من الأيالة، كما حرص على تعليم أبنائه، والذين خلفوه على رأس الدولة، فضمن بذلك للحركة العلمية بتونس مزيدا من العناية، إذ كان هؤلاء البايات المثقفين حاملين لمشروع ثقافي، فساروا على نهج والدهم واعتنوا بالعلماء، وأنشأوا وجددوا الكثير من المباني الدينية والتعليمية.

وقد خصصت هذه الدراسة للبايات الخمسة الأوائل الذين تداولوا على حكم تونس منذ تأسيس الأسرة الحسينية سنة 1705 على يد الباي حسين بن علي إلى سنة 1814م، والتي تمثل نهاية عهد حفيده حمودة باشا خامس البايات الحسينيين. والهدف من هذه الدراسة هو الوقوف على مدى تأثير ثقافة هؤلاء البايات وتكوينهم العلمي في توجههم إلى الاهتمام بالحياة الدينية والعلمية، والتي أدى الاهتمام المتواصل بها إلى ظهور حركة علمية نشيطة بتونس خلال الفترة الحديثة، فكثرت بها المؤسسات الدينية والتعليمية سيما المدارس، وكثر العلماء وطلبة العلم، وتعددت الحواضر العلمية بها.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

- **الكلمات المفتاحية:** البايات الحسينيين؛ إيالة تونس؛ العهد العثماني؛ حسين بن علي؛ الحركة العلمية؛ جامع الزيتونة؛ المدارس.

**Abstract:** The scientific movement in Tunisia witnessed a great decline during the last period of the Hafsids and the beginning of the Ottomans, however, the scientific activity began reappear gradually in the second half of the seventeenth century due to the efforts made by the Murad Beys. When the ruling passed to the Husaynian Beys in 1705 A.D, they continued with the Muradid caring about science. This was thanks to the Bey Hussein bin Ali, founder of the Hussainian family who founded several schools in the capital Tunis, and took great care of the Zaytuna Mosque. His interest was not focused on the capital only, but extended to other parts of the state. He was also keen on educating his sons who succeeded him at the head of the state; thus ensuring more care for the scientific movement in Tunisia, as these educated Beys were carrying a cultural project, following the path of their father and taking care of scholars, and established and renewed many religious and educational buildings.

This study is devoted to the first five Beys who successively ruled Tunisia since the founding of the Hussainian family in the year 1705 by the Bey Hussein bin Ali until the year 1814 CE, which marks the end of the reign of his grandson Hammouda Pasha, the fifth of the Husaynian beys. It is also about determining the extent of the influence of the culture of these beys and their scientific formation in their orientation to interest in religious and scientific life. The constant interest in it led to the emergence of an active scientific movement in Tunisia during the modern period, which resulted in a proliferation of religious and educational institutions in it, mainly schools, as well as many scholars and students of knowledge. Moreover, the scientific metallurgy has multiplied.

**Key words:** The HusaynidBeys; Ayala Tunisia; Ottoman era; Hussein bin Ali; Scientific movement; Zitouna Mosque; Schools.

**- مقدمة:**

عرفت الحركة العلمية بتونس خلال الفترة الأخيرة من حكم الحفصيين وبداية العثمانيين تراجعا كبيرا، إلا أنَّ النشاط العلمي أخذ يعود إلى الظهور بها تدريجيا إلى أن ظهر بشكل جلي في النصف الثاني من القرن الحادي عشر هجري (17م) بفضل الجهود البايات المراديين؛ الذين

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

أنشأوا وجددوا العديد من المساجد والمدارس. ولما انتقلت السلطة إلى البايات الحسينيين منذ سنة 1705هـ ، استمروا على نهج المراديين في الاهتمام بالحياة العلمية، ورغم أن الوضع السياسي في عهدهم عرف الاضطرابات في بعض الأحيان إلا أن سياستهم الثقافية اتصفت بالاستقرار، إذ أنشأوا الكثير من المباني ورمموها لإقامة الشعائر الدينية وللتعليم أيضا. وقد أدى اهتمام الحسينيين المتواصل بالمجالين الديني والعلمي إلى ظهور حركة علمية نشيطة بتونس خلال الفترة الحديثة، فكثرت بها المؤسسات العلمية والتعليمية سيما المدارس، وكثر بها العلماء وطلبة العلم، وتعددت الحواضر العلمية بها.

وقد خصصت هذه الدراسة للبايات الخمسة الأوائل؛ والذين تداولوا على حكم تونس منذ تأسيس الأسرة الحسينية سنة 1117هـ/ 1705 على يد الباي حسين بن علي إلى سنة 1229هـ/ 1814م، والتي تمثل نهاية عهد حفيده حمودة باشا خامس البايات الحسينيين. وقد استقيت جل المادة التاريخية من مصادر تونسية عاش مؤلفيها خلال القرنين 18 و19م، وفيما يخص المنهج فقد فرضت علينا طبيعة الموضوع الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي. إنَّ الهدف من هذه الدراسة هو الوقوف على مدى تأثير ثقافة الحاكم في التوجه إلى الاهتمام بالحياة الثقافية والعلمية، ولهذا تطرقت لثقافة كل باي من هؤلاء البايات وتكوينه العلمي، وجهوده الخاصة في الحياة العلمية والدينية في فترة ولايته ؟

**1. تداول بايات الأسرة الحسينية على السلطة بتونس منذ 1705م إلى 1814م:**

حكمت الأسرة الحسينية تونس حوالي قرنين ونصف من الزمن (1705- 1956م)، حيث تعاقب على الحكم تسعة عشرة بايا من هذه الأسرة، وقد ضم حسين بن علي مؤسسها وأول بایاتها تونس إلى الدولة العثمانية، فظلت تونس إيالة عثمانية كما كانت منذ 981هـ / 1574م، رغم أن البايات كانوا يتصرفون فيها تصرف الحكام المستقلين.

مؤسس هذه الأسرة هو الباي حسين، كان والده علي تركي قد قدم إلى تونس من جزيرة كريت في عهد البايات المراديين، والتحق بالخدمة العسكرية، " وكان من أهل الكفاءة والنجدة"[1]، ودخل ابنه حسين هو الآخر في خدمة المراديين فيما بعد، وتولى وظائف معتبرة كوظيفة الخزندار، والكاهية، وآغا الصبايحية، وهي الوظيفة التي كان يتولاها في عهد الباشا إبراهيم الشريف باي داي (1702- 1705)، الذي دخل في حرب مع دايات الجزائر، ولما انهزم

1- محمد الباجي بن أبي بكر المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تح: محمد زينهم محمد عزب. القاهرة: دار الآفاق العربية، (ط1)، 2012. ص:241.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

ووقع في الأسر، اجتمع كبار الجند وأعيان الحاضرة على مبايعة حسين بن علي بايا، وكان ذلك في 20 ربيع الأول 1117هـ/ 1705م[2]. وهكذا تمكن حسين باي من الإمساك بزمام السلطة بتونس، مؤسسا حكما وراثيا في أسرته.

استمر حسين بن علي على رأس السلطة بتونس لحوالي ثلاثين سنة (1705م- 1735م)، تمكن خلالها من تثبيت دعائم الدولة، وعرفت البلاد في عهده الهدوء والاستقرار إلى أن ثار عليه علي باشا ابن أخيه محمد، ذلك أنَّ الباي حسين لم ينجب أولادا ذكورا في شبابه فتبناه، ولما رزقه الله أولادا ذكورا أخذ يسعى لجعل ولاية العهد في أبنائه من صلبه، وفي سنة 1137هـ/1724م " طلب من الدولة العلية ولاية ابن أخيه منصب الباشا، وهو في القوانين الديوانية أعظم من رتبة الباي" فقلده إياها، وولى ابنه محمد المحلة فأنف ابن أخيه علي باشا من ذلك[3]، وثار عليه متسببا في إدخال البلاد في حروب طويلة دفع التونسيون ثمنها غاليا.

ولما عجز علي باشا عن مقارعة عمه لجأ إلى دايات الجزائر، وانتصر عليه بفضل دعمهم العسكري، وتمكن من دخول الحاضرة تونس، وتمت له البيعة في 1148هـ/ 1735م، وهذا ما أجبر عمه حسين باي وأبناؤه على الانسحاب إلى القيروان والتحصن بها، فحاصرتهم بها قواته[4]، ولما طال عليهم الحصار فر أبناؤه إلى الجزائر، وخرج حسين باي في مدافعة جيوش علي باشا في صفر 1153هـ /1740م فقتل في تلك المعارك[5]. أما أبناؤه فأقاموا بالجزائر لمدة طويلة ينتظرون الفرصة المواتية لاسترجاع ملك أبيهم والأخذ بثأره، وفي سنة 1169هـ/1756م جهزتهم الحكومة الجزائرية بمحلة خرجت من الجزائر تحت رئاسة حسن باي قسنطينة، وقد بذل علي باشا كل ما أوتي من قوة في قتال أبناء عمه والقوات الجزائرية الداعمة لهم، ولكنه وقع في أسرهم، ثم أمر حسن باي بقتله[6].

لقد دخل أبناء الباي حسين بن علي عاصمة البلاد منتصرين في 6 ذي الحجة 1169هـ/ 1756م، واعتلى محمد الرشيد بن حسين باي الحكم، واستتب له الأمر إلا أن عهده كان قصيرا

2- محمد بن عثمان السنوسي، مسامرة الظريف بحسن التعريف، تح: محمد الشاذلي النيفر. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1994. ج1، ص، ص: 88، 89.
3- محمد الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص:246.
4- محمد بن عثمان السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص- ص: 91- 94.
5- محمد الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص: 246.
6- محمد بن عثمان السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 97.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

جدا، حيث توفي في 14 جمادى الثانية 1172هـ/1758م، فانتقلت السلطة إلى أخيه علي باشا[7]، فظل هذا الأخير يحكم البلاد إلى أن تقدم به السن، فجعل ابنه حمودة باي ولي عهده، فجلس هذا الأخير " للحكم والأوامر تصدر بختم والده، وباشر السفر بالمحلة شتاء وصيفا"، وقد تمت بيعة حمودة باشا في محرم 1191هـ /1777م، وعمره حينها 17سنة. واشترك مع والده في الحكم، ولما توفي علي باشا في 13 جمادى الثانية سنة 1196هـ / 1782م انفرد ابنه حمودة باشا بالسلطة، وظل يحكم البلاد لحوالي اثنين وثلاثين عاماً إلى وفاته في الفاتح شوال 1229هـ/1814م[8]، وقد حقق إنجازات مهمة على المستويين الداخلي والخارجي.

ورغم الاضطرابات التي كانت تتعرض لها تونس من حين لآخر خلال الفترة المدروسة، إلا أن سياسة البايات الحسينيين في المجالين العلمي والديني قد اتصفت بالاستقرار، حيث أنشأوا وجددوا وموَّلوا الكثير من المساجد والمدارس والزوايا. ومن المصادر التي تشهد باهتمام هؤلاء البايات بالعلم والعلماء " الرحلة الورثيلانية"، إذ يصرح مؤلفها بأنَّ :" سلاطين تونس وأمرائها وأصحاب الدولة فيها صرفوا هممهم إلى العلم، وأقاموا منائر عزه، فبنو المدارس وأوقفوا الأحباس، وأعزوا العلماء، وأغنوا للدرس الجلاس، فأسهموا كلا على قدر همته واشتغاله، فإذا كل شيء على أصله وفصله ومنواله، فمن لم يصبه منهم كثير وصل إليه نزر قليل"[9].

وهناك عدة دوافع لاهتمام البايات الحسينيين بالثقافة والتعليم؛ منها أنهم هم أنفسهم كانوا من النخبة المثقفة، ومن رجال العلم والأدب، ولذلك كانوا حريصين على نشر العلم وعلى الاعتناء بالعلماء، وللدافع الديني أيضا أثر قوي في اهتمام هؤلاء البايات بالحياة العلمية، لأن الثقافة في ذلك العصر كانت ثقافة دينية، بالتالي فإنَّ التعليم كان يخدم الدين بالدرجة الأولى.

ومن العوامل الرئيسية والتي لا يمكن أن نغفل عنها في اهتمام الحسينيين بالحركة العلمية هو وجود تقاليد للسلطات السابقة بتونس في الاهتمام بالعلم ومؤسساته ورجاله سيما البايات المراديين[10] الذين أولوا الثقافة والتعليم عناية كبيرة، فقاموا بإنشاء العديد من المدارس

7- محمد بن عثمان السنوسي، المصدر نفسه، ج1، ص-ص: 106- 112.

8- محمد بن عثمان السنوسي، المصدر نفسه، ج1، ص-ص: 117- 122.

9- الحسين الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، (ط1)، 2008. ج2، ص، ص: 763، 764.

10- تأسست الأسرة المرادية سنة 1019هـ/1610م على يد مراد الأول، واستمرت إلى سنة 1114هـ/ 1702م، وبفضلها عظم شأن منصب الباي، وبعد أن كان صاحبه مكلفا بقيادة المحلة المكلفة بجمع الضرائب فقط، أصبح يمسك بزمام السلطة في البلاد.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

والمساجد بالحاضرة تونس وخارجها، من ذلك إنشاء حمودة باشا المرادي لجامع لحنفي بتونس يعد من أهم مساجد تونس آنذاك، كما أنشأ مراد الثاني العديد من المساجد والمدارس بتونس وباجة وقابس وجربة من أهمها المدرسة المرادية بتونس، ومحمد باي بن مراد باي الذي أنشأ العديد من المساجد والمدارس بتونس وخارجها. وقد خصصوا لهذه المدارس والمساجد أوقافا كثيرة[11]، وعينوا لها موظفين يقومون بمصالحها ومدرسين، كما قام المراديين بتجديد المدارس القديمة التي كانت قائمة منذ العهد الحفصي كالمدرسة العصفورية والمدرسة الشماعية والمدرسة المنتصرية[12] وغيرها من المدارس، وأوقفوا عليها أوقافا كافية.

**2. الباي حسين بن علي؛ ثقافته وأثره في الحياة العلمية والدينية:**

حسين بن علي هو مؤسس الأسرة الحسينية، وقد حكم تونس لمدة حوالي ثلاثون سنة (1117- 1148هـ/1705- 1735م)، وعرف بثقافته وحسن سياسته. وقد حظيت إنجازاته في المجالين العلمي والديني بتعريف مبسط من طرف كاتبه حسين خوجة في كتابه "ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان"، وهو الكتاب الذي أعده لذكر مآثره أو "حسناته" وهي العبارة التي تكررت كثيرا في هذا الكتاب.

**1.2. ثقافته:**

يؤكد حسين خوجة تدين حسين باي وإقباله على الصلاة وبناء المساجد بقوله :" بنى في بيت مسكنه مسجدا مختصا للصلوات الخمس بالجماعة... وبعد أداء الصلاة يستقر فيه على هيئة خاصة باشتغاله بأداء وظائفه، وأوراده دبر كل صلاة، وما منزل من منازل استراحته حين سفره وديار إقامته إلا بنى به مسجدا في بيت سكناه". كما كان شغوفا بإحياء الدروس سيما دروس الحديث النبوي الشريف، "وله جماعة من أجلاء فقهاء المدينة يحضرونه في كل يوم لرواية الحديث الشريف بين الصلاتين، يتداولون متن الصحيحين، وفي الليل بين العشاءين يقرؤون "حلية أبي نعيم" وغيرها من السير ومناقب الصالحين"، ولم يكتف بسماع الحديث الشريف بل ساهم هو الآخر في القراءة، حيث كان "من جملة الرواة" يحمل بيده نسخة، وبيد كل من

11- تونس في القرن السابع عشر، وثائق الأوقاف في عهد الدايات والبايات المراديين، تح: أحمد السعداوي. منوبة (تونس): منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، 2011. ص- ص: 28- 33. وما بعدها.

12- يضم كتاب " تونس في القرن السابع عشر" مجموعة كبيرة من عقود أوقاف البايات المراديين على جهات مختلفة، وفيها عدد كبير من العقود الخاصة بأوقافهم على المساجد والمدارس، مثل أحباس مدرسة باجة (374- 378)، وأحباس المدرسة المنتصرية (79- 82)، وأحباس المدرسة المرادية (297- 309).

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

مماليكه نسخة، كما كان مداوما على قراءة كتاب "دلائل الخيرات" في كل الأوقات[13]، ونظرا لثقافة حسين باي الدينية فقد عمل على إشاعة ونشر العلوم الشرعية.

**2.2. إنشاء وتجديد المؤسسات الدينية والتعليمية:**

عرف حسين بن علي بعنايته بالمؤسسات الدينية والتعليمية، حيث أنشأ العديد من المساجد والمدارس، وأعاد للكثير منها نشاطها بعد أن أمر بترميمها، وأوقف عليها أوقافا تكفي نفقاتها، وعين لها أساتذة في مختلف العلوم، كما كان " له اعتناء بجمع الكتب، وحصل على خزانة عظيمة، وانتفع منه النساخون"[14]. وقد عدد محمود مقديش (ت 1228هـ/ 1813م) بعض إنجازاته في هذا المجال بقوله :"ولسيدي حسين - رحمه الله تعالى- مبان عظيمة... ومنها مسجده الأنور بمدينة تونس، ومدرسته المتصلة به على أبدع نظام، وأبهج منظر وإحكام، وبه تربته - رحمه الله- متصلة به، وكذا مدرسته المشهورة بالنسبة إليه في صفاقس... ومنها إحياؤه للمدرسة اللطيفة بالطيبين من تونس قرب جامع الزيتونة، وحبس على كل بناء أحباسا تقوم به، وأجرى المرتبات على أهل العلم القائمين بذلك من معلمين ومتعلمين، وغير ذلك من المباني العظيمة"[15].

وأولى عناية فائقة بالمساجد كما في نص لحسين خوجة:" ومن حسناته اعتناؤه بتعمير المساجد وإقامة الصلوات بها، وتفقدها في كل شهر شعبان من كل سنة، ويعين المحتاج منها إلى إصلاح وترميم لإقامة ذكر الله"[16]، كما قام بتعين الحزابين ببعض المساجد، "ومنها ترتيبه في جامع المرحوم مراد باي الحنفي اثني عشر قارئا، يقرؤون حزبين اثنين من القرآن العظيم في كل يوم... ورتب لهم مرتبا مؤبدا "[17].

ومن الطبيعي أن تأخذ مدينة تونس عاصمة الإيالة النصيب الأوفر من عناية حسين باي، وفي "ذيل بشار أهل الإيمان" ما يدل على ذلك :"من خيراته وحسناته، ما أحدثه بمدينة تونس وخارجها، وما بناه من المساجد والمدارس... واهتمامه لتكثير العلم وطلابه"، ومنها إشارته إلى بعض منشآته بها مثل" المسجد العظيم الجامع الذي أحدثه، وبناه ونوَّر به قصور باردو، ودار

13- حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تح: الطاهر المعموري. ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب، 1975. ص، ص: 155، 156.

14- حسين خوجة، المصدر نفسه، ص: 156.

15- مقديش محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح: علي الزواوي ومحمد محفوظ. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1988. ج2، ص، ص: 157، 158.

16- حسين خوجة، المصدر السابق، ص: 159.

17- حسين خوجة، المصدر نفسه، ص: 144.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

ملكه وسكناه... ورتب به إماما للخمس وخطيبا حنفيا "[18]. ومن الطبيعي أيضا أن يحظى الجامع الأعظم جامع الزيتونة بقسط كبير من اهتمامه، لمكانته الدينية والروحية بتونس عبر عدة قرون، حيث رفع عدد الدروس الثابتة -والتي يلقيها أساتذة دائمين معينين من طرف السلطة- من ثمانية دروس إلى ثلاثين درسا[19]، كما عين به شيخا واثني عشر قارئا يقرؤون حزبين من القرآن الكريم كل يوم، "ورتب مرتبات للشيخ والقراء، ووقف عليهم أوقافا"، ورتب شيخا آخر وأربعة طلبة للتجويد، ووقف عليهم أوقافا، ورتب لهم مرتبات قارة.

ومن أهم مآثر حسين باي في مجال التعليم إنشاؤه لثلاثة مدارس بمدينة تونس، أولها المدرسة الحسينية الصغرى التي أسسها سنة 1124هـ/1713م، " وبها حجرات للطلبة، ورتب بها شيخا للتدريس، وهو الفاضل الشيخ سيدي محمد ويعرف بجعيط... ووقف عليها أوقافا، ورتب للشيخ والطلبة مرتبات"، وكان قد أنشأ في موضعها قبل تأسيسها " تربة أعدها لنفسه"؛ أي مقبرة خصصها ليدفن فيها هو وبقية أفراد أسرته، " وعمَّر بإزائها كتابا لتعليم أولاد المسلمين القرآن العظيم". أما المدرسة الثانية فهي المدرسة المعروفة بالمدرسة الحسينية الكبرى، القريبة من جامع الزيتونة، والتي تم الانتهاء من بنائها في سنة 1126هـ/1715م، "وبناها بأحسن إتقان، فجاءت من ألطف وأشكل المدارس" حسب تعبير حسين خوجة، وعين الشيخ العلامة محمد الخضراوي للتدريس بها، " وأوقف عليها أوقافا، ورتب للشيخ والطلبة مرتبات"[20].

ولمَّا هدم الحانات (الخمارات) التي كانت بالقرب من مسجد خليل المسدوري بباب الجزيرة أنشأ في موضعها " مسجدا جامعا من أحسن المساجد، ومدرسة عظيمة لقراء العلم، وتربة لمدفنه بها"[21]، وهذه المدرسة هي ثالث مدرسة أنشأها بمدينة تونس، وقد وضع أساسها في أوائل سنة 1136هـ/ 1724م، وتم الانتهاء من بنائها بعد حوالي ثلاث سنوات في سنة 1139هـ/ 1727م. إنَّ إنشاء حسين باي لمسجد ومقبرة ثانية مع هذه المدرسة يؤكد ربطه للعلم بالدين.

ولتؤدي تلك المدارس الوظيفة التي أسسها من أجلها خصص لها أوقافا معتبرة، حيث قام ببناء خانين اثنين و" السوق الجديد بدكاكين متصلة للتجار... داخل باب المنارة من مدينة

18- حسين خوجة، المصدر نفسه، ص، ص: 154، 155.
19- حسين خوجة، المصدر نفسه، ص: 202.
20- حسين خوجة، المصدر نفسه، ص-ص: 158- 160.
21- حمودة بن محمد بن عبد العزيز، الكتاب الباشي، تح: محمد ماضور. تونس: الدار التونسية للنشر، 1970. ج1، ص: 374.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

تونس"، كما قام ببناء خان " المعد للتجار والمسافرين قريبا من سوق الشوَّايين، فكان من أحسن الخانات، ووقف الجميع على المدارس المتقدمة الذكر مع عقارات ورباع"[22].

ورغم استحواذ مدينة تونس على النصيب الأوفر من اهتمام حسين باي إلا أنه لم يغفل بقية المناطق، وقد أتى صاحب كتاب "ذيل بشائر أهل الإيمان" على ذكر ما أنشأه أو جدده ورممه من مساجد ومدارس وزوايا بالقيروان وصفاقس، ونفطة وسوسة، وتوزر وقفصة وباجة وقابس، بالإضافة إلى اهتمامه بمدرسيها وأوقافها.

اهتم حسين باي بمدينة القيروان، "وبناها حتى جدد رسومها وأحياها "، وكانت المدينة قد تعرضت لنكبة في أواخر القرن 17م، بحيث قام مراد باي آخر البايات المراديين بهدمها و" قتل أهلها، وسباها، وشتت من كان فيها وأجلاها"[23]. ورغبة منه " في تكثير أهل العلم وطلابه وإحياء رسومه وتشييد بنائه" رتب بالقيروان عدة دروس، "وعين لمشايخها مرتبات على حسب أقدارهم ومراتبهم".

ومن أهم مآثره بهذه المدينة تأسيسه لمدرسة جديدة بها سنة 1133هـ/ 1720م، "فجاءت ألطف وأحسن وأشكل المدارس، ورتب بها درسين اثنين، أحدهما صباحا والآخر عقب النهار، ومعلما يقرئ أولاد المسلمين القرآن العظيم، وشيخا للتجويد، وأحدث بقربها سوقين اثنين بعدة دكاكين متصلة للتجار وغيرهم، ووقفها على المدرسة المذكورة مع غيرها من الرباع والضياع، ورتب للمدرس والطلبة ولشيخ التجويد تعيينات ومرتبات قدر الكفاية وزيادة". ومن شدة عنايته بهذه المدرسة حرص على أن يختار لها أفضل الأساتذة كالعلامة الشيخ عبد الله بن محمد، الذي كان يدرس بزاوية سعيد الوحيشي، ولما اشتهر بالعلم، استدعاه الباي وعينه في مدرسته، "وهو الآن مدرسها وشيخها" كما في نص لحسين خوجة[24].

كما أمر بإنشاء مدرسة بمدينة صفاقس سنة 1126هـ/ 1714م، ويبدو أنها كانت مدرسة مهمة، حيث ذكرها محمود مقديش ضمن " المبان العظيمة" التي أنشأها هذا الباي بقوله :" مدرسته المشهورة بالنسبة إليه في صفاقس"[25]، "ورتب بها شيخا للتدريس، وإماما، ومعلما يعلم أولاد المسلمين القرآن العظيم، ورتب لهم مرتبات حسب أقدارهم"، والشيخ الذي عينه للتدريس بها هو الشيخ محمد بن محمد الشرفي، " وبنى أيضا خانا للمسافرين، ووقفه على

22 - حسين خوجة، المصدر السابق، ص، ص: 160، 161.
23- حسين خوجة، المصدر نفسه، ص- ص: 214- 216.
24- حسين خوجة، المصدر نفسه، ص، ص: 118، 119.
25- محمود مقديش، المصدر السابق، ج2، ص، ص: 157، 158.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

المدرسة المذكورة مع رباع وعقارات"[26]. كما أنشأ مدرسة بنفطة، وسماها باسم القطب الشيخ عبد القادر الجيلاني، "ووقف عليها أوقافا ورباعا، ورتب لمدرسيها وطلبتها وخدمتها مرتبات حسب أقدارهم وخدماتهم، وصدر بها شيخا للتدريس العالم الفاضل الشيخ البارع علي المقدمي، ورتب بها إماما، ومؤدبا، يقرئ أولاد المسلمين القرآن العظيم"[27].

ورغم إعراض الكثير من الحكام عن العناية بمنشآت الدول التي حكمت البلاد قبلهم لأنها ستظل تنسب إليهم، إلا أن حسين باي عمل على العناية بالمدارس التي أنشأها البايات المراديين، ومن مدارسهم التي حظيت بعنايته المدرسة التي أنشأها مراد باي بجزيرة جربة للشيخ العلامة إبراهيم الجمني سنة 1085هـ/1675م[28]، وقد كان مراد باي قد أنشأ للجمني هذه المدرسة بجزيرة جربة التي ينتمي الكثير من سكانها إلى المذهب الإباضي بعد أن بلغه عن " تبحره في العلم وديانته". ولم يزل الباي حسين يبذل للقائمين على هذه المدرسة "من جزيل إنعامه وإحسانه، ويمد في كل سنة الطلبة والمقيمين بالمدرسة المذكورة بالطعام والقوت الكثير، سوى ما حرر لهم من النخيل، وأسقط عنهم قوانين عديدة، وأعشار شرعية، وحبس عليهم بعض ضياع"، ولمَّا توفي الشيخ إبراهيم الجمني سنة 1134هـ/1722م دفن بتلك المدرسة، وبنى الباي على قبره " قبة عظيمة" على حد تعبير حسين خوجة[29].

كما أولى حسين باي عناية كبيرة بالعديد من المدارس التي أنشأها محمد باي المرادي، وقد ذكر حسين خوجة خمسة من تلك المدارس بالكاف، وباجة، وتوزر، قفصة، وقابس. وفيما يخص المدرسة التي بقلعة الكاف؛ فقد عمل الباي على " إحياء أحباسها وأوقافها، وتحرير الكل من القوانين الشرعية والعرفية"، كما شملت عنايته مدرسة باجة "بالنظر في أحوالها، وأوقافها وطلبتها وإعانته لهم"، وعين بها شيخا لتجويد القرآن الكريم، وهو الشيخ محمد السبعي عالم بالقراءات. وأما مدرسة محمد باي بتوزر، فقد كان الباي" يتفقدها وينظر في أوقافها، ويعينهم ويمدهم ويكفيهم مؤونة الاحتياج"، ونفس الترتيبات استفادت منه مدرستي محمد باي بكل من قفصة وقابس والقائمين عليهما.

كما كان حسين باي يقدم مساعدات نقدية وعينية للأساتذة المدرسين للإنفاق على طلبتهم، من ذلك ما قدمه من مساعدات للشيخ محمد بن أحمد بقفصة، والذي كان" يقرئ الفقه

26- حسين خوجة، المصدر السابق، ص: 126.
27- حسين خوجة، المصدر نفسه، ص، ص: 141، 142.
28- مقديش، المصدر السابق، ج2، ص: 440.
29- حسين خوجة، المصدر السابق، ص- ص: 130- 133.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

والنحو والتوحيد وغيره في زاوية من زوايا دار سكناه"، فازدحم عليه الطلبة، وكثر مريدوه، ولما بلغ خبره للباي "عين له عشرين قفيزا من الشعير، وعشرة أمطار زيتا، وعدة رؤوس غنم سنوية، إعانة له على إطعام الطعام لطلبة العلم". ومن مساعداته للأساتذة ما رتبه للشيخ محمد المنصوري ببلد القطار قريبا من بلاد قفصة، حيث " عين له مرتبا، وطعاما للفقراء للقيام بالطلبة، وتعليم العلم "[30].

ولم تقتصر عناية هذا الباي على المدارس بل شملت العديد من الزوايا، من ذلك تجديد الزاوية التي بمدينة سوسة، وحولها إلى مدرسة، ونسبها للشيخ القطب عبد القادر الجيلاني، "ووقف عليها أوقافا من عقارات ورباع، وعين لمدرسها وطلبتها، ومن يقوم بها من مؤذن وإمام وقيم وغيرهم"، وعين للتدريس بها " العالم الفاضل صاحب العلوم العقلية الشيخ سيدي قاسم المؤخر الأنصاري "[31].

**3.2. العناية بالعلماء والصلحاء والأدباء:**

تكاد المصادر التونسية التي أرخت لحسين باي تتفق على "محبته للأولياء والعلماء"[32]، كما كان" له ولوع بزيارة الصالحين، وأهل البركات والإشارات، والتردد على زيارتهم "[33]، ولذلك " أصلح كثيرا من مقامات الصالحين "[34]. ولا شك أن تعلقه بالعلماء والصلحاء نابع من ثقافته الدينية.

ولم تقتصر عنايته بهم على الجانب المعنوي بل تعداه إلى الجانب المادي " لما أجراه عليهم من إحسانه، وصلاته وهباته، وأعطياته "[35]، حيث كان يستغل بعض المناسبات ليحسن إليهم فكان " كلما ختم البخاري أو مسلم يدر على الرواة بإدرارات حسنة، ويبذل إليهم عطايا مستحسنة من أكسية جليلة، وجوخات جميلة، ودراهم، وغير ذلك على حسب طبقاتهم "[36]. كما قرب إليه الشعراء فكان له نصيب من قصائدهم التي امتدحوه بها " فأحسن جوائزهم "[37].

30- حسين خوجة، المصدر نفسه، ص- ص: 142- 144.
31- حسين خوجة، المصدر نفسه، ص، ص: 133، 134.
32- محمود مقديش، المصدر السابق، ج2، ص:156 .
33- حسين خوجة، المصدر السابق، ص: 156.
34- حسين خوجة، المصدر نفسه، ص: 112.
35- محمود مقديش، المصدر السابق، ج2، ص: 160.
36- حسين خوجة، المصدر السابق، ص: 155.
37- محمود مقديش، المصدر السابق، ج2، ص: 157.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

كما أحسن كثيرا للعلماء المدرسين، فعين الكثير منهم في المساجد والمدارس والزوايا، وخصص لهم رواتب ثابتة من ريع الأوقاف، ورفع عن بعضهم الضرائب. وقد أشار حسين خوجة إلى ذلك في سياق حديثه عن عنايته بفقهاء مدينة باجة بقوله:" ومنها ما عمت به عنايته لفقهائها من إحسانات سنوية، وتحرير قوانين عرفية، وأعشار شرعية إعانة لهم على طلب العلم وتعليمه"[38]. ومن العلماء الذين استفادوا من رعاية الباي حسين الشيخ المتصوف أحمد الريغي، الذي تصدر للتدريس بمدينة سوسة، وقد كانت "جميع حوائجه مقضية عند حضرة الأمير -حفظه الله- ورفع عنه قوانين عرفية، وأعشارا شرعية، ويمده بما يستحقه"، وفعل الباي الشيء ذاته مع حفيده " الفقيه الشيخ محمد بن محمد الريغي، الذي "تعاطى التدريس بالجامع الأعظم، وعين له الأمير - حفظه الله- مرتبا على ذلك".

واعتنى بمدرسين آخرين بمدينة سوسة كالشيخ علي بن موسى الأزهري الأندلسي الأصل، فقد أحسن إليه " كل الإحسان، وصدره للتدريس، وعين له مرتبات"، كما كان يقدم له كل عام كسوة، ومنهم الشيخ حسن بن عبد الرزاق الهدة، الذي خصص له مرتبا، وولاه التدريس و"الفُتيا لعلمه، وإتقانه النوازل ومتعلقاتها ". ومنهم الفقيه الشيخ علي بن علي زيد الزرلي السوسي، الذي صدَّره الباي " للتدريس في زاوية الشيخ أبي الفاتح، "وعين له مرتبا يستعين به". وقد حدث أن حضر حسين باي مجالسه العلمية، ورافقه في بعضها كاتبه حسين خوجة [39].

**3. الباي علي باشا؛ تكوينه العلمي وأثره في الحياة العلمية والدينية:**

هو علي بن محمد بن علي تركي، وهو ثاني البايات الحسينيين، ولد سنة 1100هـ/ 1169هـ، وتباه عمه حسين باي، لأنه لم ينجب أولادا ذكورا في شبابه، وقد تمكن من الاستيلاء على السلطة في سنة 1148هـ/ 1735م، وظل يحكم البلاد اغتياله سنة 1169هـ / 1756م، وبهذا تكون مدة حكمه لتونس لحوالي 21 سنة.

**1.3. ثقافته وتكوينه العلمي:**

اعتنى عمه الباي حسين بتربيته وتعليمه، وأحضر لتعليمه عدة علماء، فقرأ أولا على الشيخ محمد التونسي، ثم أحضر له الشيخ محمد الخضراوي للإقراء والمجالسة، "وضم إليه من ذوي الرأي الخبيرين من يكتسب منهم حسن التربية"، ونشأ على تلك الحال حتى بلغ مبلغ الرجال. وتتفق الكتابات التونسية على أنه من العلماء، إذ يذكر محمد السنوسي بأنه " كان مع سفكه

38- حسين خوجة، المصدر السابق، ص: 144.

39- حسين خوجة، المصدر نفسه، ص- ص: 135- 140.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

للدماء... وإضراره للمملكة بمظالمه- معدودا في العلماء"[40]، ويذكر محمود مقديش بأنه :" كان فاضلا عالما مطلعا على الأحكام الشرعية والعادية، ولا يقدر أحد من أولي الأحكام أن يتساهل في جُزئيَّة... وله توغل في العلوم العربية، فشرح تسهيل ابن مالك بشرح عظيم الشأن، فقبله علماء المشرق والمغرب وأقروا له بالفضل"[41]، وقد كان هذا الكتاب يقرأ بجامع الزيتونة في فترة ولايته، وقرظه عدة علماء.

**2.3. أثره في الحياة الدينية والعلمية:**

سار علي باشا على نهج عمه حسين باي في الاهتمام بالحياة العلمية، حيث يذكر مقديش أنه :" أقام الدين بالسيف والقلم، فالسيف للبغاة، والقلم للعلماء"، وقد مكنته ثقافته وتكوينه العلمي الرفيع من اختيار الفقهاء المراد تعيينهم في مختلف الوظائف، فلم يكن يول " أحدا ولو مقام التوثيق، إلا بعد الاختبار الزائد "، كما مكنته مكانته العلمية من تقديم توجيهات للعلماء المدرسين، " وكان يسوس العلماء في تعليمهم، ويحثهم على تعليم العلوم النافعة، والكتب المتداولة، وترقية المبتدئين، ويحذر من علوم الأوائل وأهل الأهواء، ويحذر من الخوض في علومهم، ويشدد النكير على الخائض فيها، وربما نفاه من عمالته "[42].

وقد أولى عناية كبيرة لبناء المدارس، من ذلك إنشاؤه لأربعة مدارس بمدينة تونس، ثلاثة منها مالكية وواحدة حنفية، أولى هذه المدارس هي مدرسة حوانيت (أو حومة) عاشور، وهي مالكية المذهب، أنشأها سنة 1159هـ/ 1746م ، وقدم لمشيختها الشيخ أبا محمد عبد الله السوسي. كما أنشأ مدرسة مالكية ثانية ببير الحجَّار، وقدم لمشيختها الشيخ مسعود المغراوي الباجي، وقد تمت سنة 1170هـ/ 1759م، أي بعد وفاته بفترة قصيرة. ثم أنشأ مدرسة " ثالثة بالقشاشين قرب جامع الزيتونة وهي للحنفية، وجعل بها تربته"، وهي التي تعرف بالمدرسة الباشية، وقدم لمشيختها الشيخ محمد المحجوب الحنفي، وجميع هذه الأبنية كانت حول الجامع الأعظم، ثم أنشأ مدرسة رابعة بالقرب منها للمالكية سنة 1168هـ/ 1754م، وهي المدرسة التي نسبها لولده سليمان، ولذلك تعرف بالمدرسة السليمانية، وقدم لمشيختها الشيخ محمد بن علي بن خليفة الغرياني. وأوقف على جميع هذه المدارس" أوقافا من الربع والعقار، تخرج جرايات

40- محمد بن عثمان السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص-ص: 93- 95.
41- محمود مقديش، المصدر السابق، ج2، ص: 162.
42- محمود مقديش، المصدر نفسه، ج2، ص: 162.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

كافية للشيوخ والتلامذة"، كما جعل لها مرتبات من الخبز" إعانة لطلبة العلم[43]، وقد كان علي باشا "ولوعا بالكتب واكتسابها"[44]، ولهذا جعل بكل مدرسة من تلك المدارس خزانة كتب.

كما وجه علي باشا عنايته بالعديد من المؤسسات الدينية والتعليمية خارج مدينة تونس، من ذلك عنايته بمدرسة إبراهيم الجمني بجربة، حيث أضاف لها دورا أو طابقا، "فوق الدور الذي بناه مراد باي". ويبدو أيضا أنه كان شديد العناية بالمدرسين، وذلك ما نلمسه من طريقة تعامله مع الشيخ عبد الله السوسي حينما عن الانقطاع عن التدريس لتدهور حالته الصحية، وقد كان هذا الشيخ" زاهدا في الدنيا متقللا منها مقبلا على العلم، فكان الباشا يحبه، ويجله ويفضله لذلك، فلما شيَّخه على المدرسة أسكنه في دار بقربها، وأجرى عليه من حبس المدرسة ما يقوم به وبعياله، فاتفق أن الشيخ - رحمه الله- أصابه تشويش منعه من الخروج للإقراء"، ولما علم الباشا بذلك طلب من مقدم المدرسة أن يوفيه مرتبه، ولما رفض الشيخ استلام راتبه لانقطاعه عن التدريس، طلب الباشا من المقدم أن يقول له، بأن ذلك إعانة من الباشا وليس إجارة على عمله فقبلها الشيخ[45].

**4. الباي محمد الرشيد؛ ثقافته وتكوينه العلمي:**

ولد الباي محمد بن حسين باي في ذي الحجة سنة 1122هـ / 1710م[46]، وتولى حكم الإيالة التونسية لأقل من ثلاث سنوات؛ منذ ذي الحجة 1169هـ /1756م إلى وفاته في جمادى الثانية سنة 1172هـ/1759م[47]. وبالنسبة لتكوينه العلمي فقد اعتنى والده "بتربيته وتعليمه، وحنَّكه بما أهله إلى المراتب العالية"[48]، ويتحدث حسين خوجة عن تعليمه بقوله:" ولما كبر ابنه سيدي محمد النجيب قرأ وحصل من القرآن نصيبا، ثم قرأ وتفقه على الشيخ... سيدي يوسف الإمام، فقرأ عليه العقائد، وحصل نبذة من الفقه والنحو والصرف، والعروض، وعلم الأدب وغيره، وحضر مجالس رواة الحديث الشريف"[49]، وقد كان شيخ يوسف برتقيز من كبار العلماء حسبما يفهم

43- محمود مقديش، المصدر السابق، ج2، ص: 162، 163.
44- محمد بن عثمان السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص، ص: 96، 97.
45- محمود مقديش، المصدر السابق، ج2، ص، ص: 162، 163.
46- محمد النيفر، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1996. ج1، ص: 521.
47- أحمد الطويلي، في الحضارة العربية التونسية. سوسة (تونس): منشورات دار المعارف للطباعة والنشر. ص:135.
48- محمد بن عثمان السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 99.
49- حسين خوجة، المصدر السابق، ص: 163.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

من وصف حسين خوجة له:" العالم الفقيه الكامل... وله ملكة تامة في الفقه والأصول والعربية، متبحر في الآداب "[50].

ولما بلغ محمد الرشيد باي سن الخامسة عشرة من عمره عينه والده للخروج على رأس المحلة لجمع الضرائب، ووجهه للسفر كعادة بايات تونس خليفة له، وكان ذلك سنة 1137هـ/ 1724م، ورغم انشغاله بالمحلة إلا أنه لم ينقطع عن طلب العلم، فقد كان يقوم بوظيفته كباي "مع ملازمة قراءة العلم، وأكثر ولوعه بالعلوم المعقولة على الخصوص الأدب، فقد نسج على منوال ملوك الأندلس، وأبدع رقيق الشعر باعتناء قاضي محلته وأستاذه الشيخ محمد بن محمد الشافعي الشريف، ومن انضم إليه من الأدباء"[51]. وقد كان هذا الباي معدودا في علماء وأدباء عصره، كما كان معروفا بالإجادة في نثره وشعره، وذلك ما تشير إليه بعض المصادر، إذ يصفه الباجي المسعودي في كتابه "الخلاصة النقية" بقوله :" وكان هذا الأمير من صدور الأدباء، وفحول الشعراء، وسمحاء الملوك، ونظمه مدون مشهور"[52].

نظم محمد باي خلال إقامة كلاجئ بالجزائر[53] ديوانا صور فيه حالته النفسية، واستياءه من ابن عمه علي باشا، وأمله في الرجوع إلى بلاده[54]، وقد وصف محمد السنوسي هذا الديوان بأنه ديوان "بديع جيد النظم، والنثر والتوشيح"[55]، ورغم صغر حجمه كان متداولا بين الأدباء. ومن شعر محمد باي قصيدته "الميمية" المسماة ب"محركات السواكن إلى أشراف الأماكن"، يذكر فيها حنينه إلى البقاع المقدسة، وهي طويلة هذه بعض أبياتها:

**هل زورة تشفي فؤاد متيم /// يا أهل مكة والحطيم وزمزم**
**أو حظوة بالجزع والخيف الذي /// ما خلته حينا تجافاه فمي**
**أني أنا وبذي الحليفة موردي /// وببانة الجرعاء ثم مخيمي**

ومن شعره أيضا قصيدته " القافية"، وهذا مطلعها:

**أمـولاي إنَّ الـنفس لمـا تعـودت /// جميلك راحت بالفواضل تنطق**
**إذا كان فضل الناس يشكر لازما /// ففضـلك ربـي منـه أولـى وأخلـق**

50- حسين خوجة، المصدر نفسه، ص: 155.
51- محمد بن عثمان السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص، ص: 99، 100.
52- محمد الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص:254.
53- أقام أبناء حسين باي بالجزائر بين سنتي: 1153هـ /1740م، و1179هـ/ 1765م.
54- أحمد الطويلي، المرجع السابق، ص:138.
55- محمد بن عثمان السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 109.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وله قصيدة في الفخر بأسرته، هذه بعض أبياتها[56]:

**أرى العز لا يؤوي سوى بيت مجدنا /// ولا في حمانا يستذل ذليل**
**...إذا استقبل الأعداء صارم سيفنا /// فماضيه بالنصر العزيز كفيل**
**وإن نحن سرنا في كماة جيوشنا /// وللخيل وقع في الثرى وصهيل**
**تكاد جبال الأرض من عظم بأسنا /// تذوب على سطح الثرى وتميل**
**دع الجبن والإحجام في طلب العلى /// فللموت وقت ليس عنك يحول**
**فما العار فيمن مات للعز طالبا /// وليس حياة بالحذار تطول**

اشتهر محمد باي ب" حب العلم والعلماء"[57]، وبالميل إلى مجالستهم، حيث كان يستدعي أعضاء المجلس الشرعي وغيرهم من العلماء للضيافة في بساتينه بالمنوبة، ويحتفل لإكرامهم، ورغم فإنّ المصادر لا تحصي له أي أثر في الحياة العلمية والدينية، ولا شك في أن ذلك يعود لجملة من الأسباب منها أنه لم يتول الحكم بتونس إلا صوريا، إذ كان أخوه علي باشا هو القائم حقيقة بأعباء الحكم، ويسند ما يقوم به إلى أخيه محمد باي، ويحملها إليه ليوقعها بختمه، بينما كان هو ملازما للبساتين بالمنوبة[58]، كما أنه حكم البلاد لمدة قصيرة جدا، بعد فترة عصيبة من تاريخها بعد الحروب بين أبناء حسين باي وابن عمهم علي باشا، كما أنه حكمها وهو عائدا إليها حيث قضى فترة طويلة كلاجئ بالجزائر.

**5. الباي علي بن حسين؛ باي ثقافته وأثره في الحركة العلمية والدينية:**

الباي علي باشا بن حسين باي هو رابع البايات الحسينيين، ولد سنة 1124هـ/ 1712م، وتولى حكم تونس لحوالي ثلاث وعشرون سنة، بحيث بويع في 14 جمادى الثانية 1172هـ /1759م، وظل على رأس السلطة إلى وفاته سنة 1196هـ/1782م[59]. وقد أفرده وزيره الشيخ حمودة بن عبد العزيز (ت 1202هـ/ 1788م) بكتاب "حافل استقصى فيه دولته ومزاياه وجميع أحواله "[60]، انتهى من تأليفه سنة 1190هـ/1776م، وذكر في مقدمته أنه ألفه إسداء لواجب الشكر اتجاهه بقوله :" رأيت واجب شكر نعمائه التي طوّقنيها... يقتضي أن أقوم بما أخل

56- محمد النيفر، المصدر السابق، ج1، ص- ص: 521- 526.
57- محمد بن عثمان السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 109.
58- أحمد الطويلي، المرجع السابق، ص:141.
59- محمد السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 112؛ حمودة بن عبد العزيز، المصدر السابق، ج1، ص: 44.
60- محمود مقديش، المصدر السابق، ج2، ص: 168.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

به غيري من هذه الوظيفة"[61]، فهذا الكتاب هو من صنف المؤلفات الموجهة للحكام، والتي تفيض بالمدح والثناء عليهم وعلى إنجازاتهم.

**1.5. ثقافته وتكوينه العلمي:**

كان والده حسين باي حريصا على تعليمه كبقية أبنائه، فخصص له رفقة أخاه محمد مؤدبا يقرئهما القرآن الكريم ف"حصَّلوه عنه حفظا وأداء وخطا "، ثم درس مختلف العلوم الشرعية على يد الشيخ يوسف برتقيز الحنفي[62]. ويذكر صاحب " الكتاب الباشي" تعليمه بقوله :" أخذ أصول عقائده ببراهينها عن شيخه إمام والده أبي المحاسن يوسف برتقيز- رحمه الله تعالى- وذلك على طريقة أهل السنة والجماعة... كما أخذ عن شيخه المذكور طرفا صالحا من الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة - رضي الله عنه- ولم تطل المدة حتى كان من وقعة سمنجة ما كان فخرج مع والده -رحمه الله تعالى- وشغلته مباشرة الحروب، ومقارعة الأبطال عن طلب العلم وتحصيله"[63]، ورغم أنّ علي باشا لم يبلغ درجة العلماء كشقيقه محمد باي إلا أنه معدود ضمن رجال العلم، حتى أن محمد السنوسي يصفه بأنه " كان عادلا عالما"[64].

وقد أدرج صاحب " الكتاب الباشي" عنوانا لأخلاق علي باشا سماه " الحكمة الخلقية"، ذكر فيه التزامه بالعبادة والذكر، مؤكدا أنه كان محافظا على صلواته في الحل وفي السفر، والقيام بالسنن الراتبة، والمواظبة على الأوراد والذكر، إذ " ورطَّب به لسانه، فهو يستعمله حتى في وقت جلوسه للحكم والقضاء... مع كونه قد أفرد وقتين للذكر لا يعمل فيها عملا سواه، وهما من بعد صلاة الصبح إلى أن تمضي ساعة من النهار، ومن بعد صلاة المغرب إلى العشاء، وألزم نفسه ذكر كلمة التوحيد ثلاثة آلاف مرة في كل يوم... وله في ذلك أسانيد وإجازات عن الشيوخ".

وقد أجازه الشيخ عبد الحفيظ الخنقي بورد الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي (ت 1120هـ/ 1717م) بسنده في الطريقة، ثم وردت إليه الإجازة من الشيخ يوسف بن محمد بن محمد بن ناصر ابن أخ الشيخ أحمد بن ناصر القائم مقامه في تلك الفترة، والإجازة مؤرخة ب 24 صفر 1187م/ 1773م، وهذا بعض ما ورد فيها :" وقد بلغنا كتابك، وفهمنا مضمونه، ومأخذك عمن ذكرت... وقد أجزناك في كل ما أخذته عن السيد عبد الحفيظ قولا وفعلا، وأجزناك أيضا في سائر مروياتنا ومسموعاتنا عن الأشياخ"، إلى أن قال " أجزت السيد علي باي ابن حسين باي، كما

61- حمودة بن عبد العزيز، المصدر السابق، ج1، ص: 43.
62- حسين خوجة، المصدر السابق، ص: 155.
63- حمودة بن عبد العزيز، المصدر السابق، ج1، ص: 190.
64- محمد السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 116.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

أجازني أشياخي في جميعه، وبكل ما تصح روايته من مسموع ومقروء وتقييد". وتلقى الباي في السنة نفسها إجازة من الشيخ المتصوف محمد بن عبد الكريم السمان بالمدينة المنورة[65]. وهكذا كان علي باشا ميالا للتصوف وللرواية ولتحصيل الإجازات.

وكما هي العادة في الكتب الموجهة للحكام فهي تركز على الجوانب المشرقة من شخصيتهم، وتبالغ في المدح والثناء، كما في هذا النص لحمودة بن عبد العزيز الذي أثنى فيه على ذكاء علي باشا بقوله:" فما رأيت أذكى ولا أفطن ولا أسرع فهما ولا أقوى عارضة منه، ولقد تُعرض عليه كتب الإنشاء الصادرة عن أمره من إنشائي وإنشاء غيري من جهابذة كتابه فينتقد فيها أشياء كثيرة، والصواب فيها معه، ومنها ولا يتفطن إليه إلا أكابر الكتاب والمترسلين، وكلما عرضت عليه قصيدة لشاعر وكان فيها موضع للنقد إلا انتقده، وبين مواضع الخطأ منها، وكثيرا ما يناظر علماء حضرته، ويسبقهم إلى الفهم في كثير من المسائل العويصة"[66].

أظهر علي باشا حرصا كبيرا على تعليم وتهذيب أبنائه وكافة أهل بيته، فكان يختار لأبنائه المؤدبين والأساتذة الأكفاء لتعليمهم القرآن الكريم ومختلف العلوم الشرعية، وتعليمهم بعض فنون السياسة والتدبير لتأهيلهم للقيام بشؤون الدولة، ولم يقتصر الأمر على أبناءه بل شمل أيضا أبناء إخوته، إذ " ضم ابني أخيه إلى أبنائه حمودة وسليمان وعثمان والمأمون في التعليم والختان، والتدريب على أحوال الدولة"[67]. كما حرص على التزام أهل بيته بالطاعات والآداب الشرعية كما في نص لكاتبه حمودة بن عبد لعزيز:" فأما سياسته لأهل منزله فقد أخذهم بما أخذ به نفسه من الطاعات، والمحافظة على الصلوات، والأذكار وقراءة القرآن، وقراءة "دلائل الخيرات"، والرحمة لخلق الله تعالى، وكثرة الصدقات". ومن الآداب التي عمل على بثها في نفوس أبناءه هو تحبيبهم في العلماء وإكرامهم كما في نص أيضا لحمودة بن عبد العزيز في قوله:" وقد عوَّد ابنه الأسعد المصون مولانا محمد المأمون - أعزه الله تعالى- أنه كلما دخل عليه وعنده أحد من الفقهاء أعطاه جملة من الدنانير، ويأمره بتفريقها فيهم حتى صار ديدنا له، وذلك من سياسته - أيده الله تعالى- لما رأى طبعه الكريم مائلا إلى الجود والسخاء جرأه على ذلك، بتعوده متابعة العطاء للفقهاء وغيرهم"[68].

**2.5. إنشاء وتجديد وتنظيم المؤسسات الدينية والتعليمية:**

65- حمودة بن عبد العزيز، المصدر السابق، ج1، ص- ص: 207- 213.
66- حمودة بن عبد العزيز، المصدر نفسه، ج1، ص:282.
67- محمد السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 115.
68- حمودة بن عبد العزيز، المصدر السابق، ج1، ص، ص: 223، 224.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

عرفت الحياة العلمية بتونس ازدهارا كبيرا في عهد علي باشا، فقد أنشأ و" جدد الكثير من الزوايا والمساجد[69] والمدارس، وأجرى على العلماء المدرسين الرواتب العالية، ومنح الطلبة إعانات كثيرة دائمة، سواء منهم من كان في العاصمة أو خارجها[70].

وتعد المدرسة الحسينية الكبرى بمدينة تونس أهم المؤسسات التعليمية المنسوبة إليه، وتعرف بالمدرسة الجديدة، وبالمدرسة الحسينية الكبرى، للتفريق بينها وبين المدرسة الحسينية الصغرى التي بجوارها، والتي أسسها والده من قبل. قام الباي بإنشائها بجوار " تربته المعدة لدفنه" بساباط العجم، وهذه المدرسة جد مشهورة بمدينة تونس[71]، وقد وصفها صاحب "الكتاب الباشي" بأنها "من أحسن المدارس وأبدعها "[72]. ولتستمر هذه المدرسة في أداء دورها التعليمي أوقف عليها الباي أوقافا معتبرة "واسعة " تكفي جميع مصاريفها من زيت وشمع وطيب وغيرها، وأجرى على المدرسين والطلبة " الجرايات ( المرتبات) الواسعة، التي لم تكن في مدرسة من المدارس غيرها"[73]، وأوجد لها نظاما لتسييرها.

عين الباي بهذه المدرسة أربعة أساتذة من المذهبين المالكي والحنفي، أولهم مالكي المذهب جمع له عدة مهام؛ فهو ناظر أو مدير هذه المدرسة وإمامها والمدرس بها، " واشترط عليه إقراء درس من "مختصر الشيخ خليل" بشرح من شرحه صباح كل يوم فيما عدا رجب وشعبان ورمضان، وأما في الأشهر الثلاثة فاشترط قراءة صحيح البخاري دراية، ودرسا في الفرائض"، وخصص له "راتبا في كل يوم ستة وأربعين ناصريا "، وأوقف لسكنه دارا " من أحسن الدور". أما الشيخ الثاني فهو حنفي المذهب كلفه بتدريس "فقه جامع للعبادات والمعاملات بعد صلاة العصر، ورتب بها ثمانية طلبة من الحنفية يقرأون عليه الدرس المذكور. ورتب بها أيضا شيخا ثالثا مالكيا يقرئ درسا في العربية أو الأصول أو الكلام أو المنطق، أو نحوها من الفنون بعد صلاة الظهر، ورتب بها أيضا شيخا رابعا من القراء يقرئ درسا من التجويد قبل صلاة العصر، وأسكن بها ثلاثين طالبا يحضرون دروسها، ويقرؤون كل يوم حزبين من القرآن العظيم من صلاة الصبح، وحزبين بعد صلاة المغرب".

---

69- محمد السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 116.

70- رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس 1782- 1814م، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة بدائرة التاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت، ص:351.

71- محمود مقديش، المصدر السابق، ج2، ص: 168.

72- حمودة بن عبد العزيز، المصدر السابق، ج1، ص:299.

73- حمودة بن عبد العزيز، المصدر نفسه، ج1، ص:205.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

لم يكن لهذه المدرسة دور تعليمي فقط، بل كان لها وظيفة دينية أيضا، ولا شك أن المسجد كان من مرافقها الرئيسية، حسبما يفهم منى سياق حديث صاحب " الكتاب الباشي"، إذ ذكر أن الباشا عين بها إماما مالكيا وهو ناظر أو مدير المدرسة، " وعين بها ثمانية مؤذنين للآذان بصومعتها، وقيام الليل للذكر وتسبيح"، وموظفين آخرين يقومون بمختلف مصالحها، "وأجرى على كل واحد من هؤلاء الأرزاق التي لا توجد في غيرها من المدارس. وعين من الوقف صدقة توزع على الشيخ والطلبة وغيرهم يوم ختم "صحيح البخاري" من شهر رمضان في كل سنة".

ومن أهم مآثر علي باشا في مجال التعليم هو تخصيص الأوقاف لصالح المدارس التي تعرضت أوقافها للضياع سيما المدارس القديمة والتي تعود للعهد الحفصي، من ذلك ما أوقفه على المدرسة الجاسوسية " لما استولى الضياع على أوقافها، ولم يبق منها إلا القليل لا يفي برواتبها، وكادت أن تضمحل، فأوقف عليها ما يقوم بذلك" فعمرت بحلقات الدروس، كما " أوقف أوقافا نافعة على المدرسة التوفيقية لما وقع في أوقافها اختلال".

وعرف علي باشا بعنايته الكبيرة بالقرآن الكريم، ولهذا اهتم بالكتاتيب، ويدخل في هذا الإطار تجديده بناء الكتاب الملاصق لتربته، فعين به مؤدبا، وعشرين صبيا يعلمهم كتاب الله، وأجرى الأرزاق على الجميع، وأجرى عليها الأوقاف[74]، ومن بين الكتاتيب التي أنشأها بمدينة تونس الكتاب الملاصق لجامع والده[75]، والذي أنشأه لحفظ وتجويد القرآن الكريم لما رآه من إهمال الطلبة للتجويد. وقد رتب بهذا الكُتاب درسين لعلم التجويد، خصص أحدهما للقراءة برواية حفص عن عاصم، اشترط أن يكون شيخه حنفيا، وخصص الدرس الثاني للقراءة برواية قالون عن نافع، واشترط أن يكون شيخه مالكيا، وعين مع كل شيخ ثمانية طلبة، وجعل لكل واحد من الشيخين نصف ريال كل يوم، ولكل طالب خروبة. واشترط أن لا يزيد الطالب على ختمة واحدة، فإذا أتمها ينسحب من الكتاب، ويعين مكانه طالب آخر ليستفيد أكبر عدد من الطلبة.

وأوجد هذا الباي نظاما لتنظيم قراءة القرآن الكريم ورواية الحديث النبوي بعدة مساجد، وبتربته المجاورة للمدرسة الحسينية الكبرى، إذ عين بها " الثلاثين طالبا الذين بالمدرسة، أن يقرأ كل واحد منهم حزبا من القرآن العظيم صباحا وحزبا مساء في الأسفار، بحيث تحصل من مجموعهم ختمة كل يوم"، كما " رتب بها رواية "صحيح البخاري" كل يوم، بحيث يختم كل عام

74- حمودة بن عبد العزيز، المصدر نفسه، ج1، ص-ص: 299- 302.
75- محمد السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 115.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

ختمة ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان، وأسند ذلك لشيخ المدرسة"، ورتب بها " قارئا يقرأ "دلائل الخيرات"، ويختمه في كل جمعة مرتين"، كما قرر أن تحيى بتربته " ليالي المواسم الفاضلة بالقرآن والذكر، بحيث يختم بها في كل ليلة من ليالي المواسم ختمتان من القرآن". وعين مائة وثمانين قارئا يختمون كل يوم ستة ختمات من القرآن الكريم، وخصص لهم في كل شهر 270 ريال، كانوا يأخذونها قبل تمام المدرسة من أوقافها وأوقاف التربة، ولما تم بناء المدرسة، وصرف ريع أوقافها على مستحقيها، أصبح يدفع أجور القراء من خزانته[76].

**3.5. مجالسه العلمية:**

كان علي باشا يقرب العلماء إليه ويجتمع بهم كأسلافه من بايات الأسرة الحسينية، "واعتنى بالمذاكرة والتدريس بمجلسه العالي، فلم يُغْفِل أوقاته من ذلك مع تحمله بأعباء السلطنة [77]"، ونظم هذا الجانب بحيث " اصطفى لمجلسه العلماء، ودخل في زمرتهم مع ما له من الذكاء والمشاركة في العلوم، وحب المحاورة، وملازمة "صحيح البخاري" بنفسه، يستحضر للمبيت عنده كل ليلة طائفة من العلماء للمسامرة على العلم، وسرد الكتب المهمة، والمحاورة فيها، وكثيرا ما يورد عليهم المشكلات والإشكالات من توقفاته، ويديرون في ذلك كؤوس محاضراتهم ومحاوراتهم، ويجزل عطاء المجيد منهم "[78].

وقد كان هذا الباي يميل إلى الحديث النبوي الشريف، ولهذا "عمر أوقاته بدراسته وروايته، وله فيه أسانيد روايات وإجازات"، " والتزم ختم "صحيح البخاري" في كل عام ختمة، يعقد له مجلسا بين الظهرين، فيرويه إمامه الذي يصلي به الخمس، ويحضر المجلس من العلماء من تكون نوبتهم المبيت بحضرته العلية تلك الليلة، ويُحضر شرح القسطلاني، وشرح العيني ليرجع إليهما فيما أشكل فهمه أو ضبطه، وختمه يكون في كل عام ليلة سبع وعشرين من رمضان"، ويحضر الختم أبناؤه، وجميع الفقهاء، وأكابر الدولة، فيقرؤون ختمة من القرآن الكريم، ثم يروي الراوي فيختم، وبهذا ينفض الموكب، "وقد أفاض عليهم - أيده الله- سجال إحسانه، وهكذا في كل عام على الدوام".

وأما كتب التفسير والحديث والسير والفقه وغيرها من الكتب، " فإنما تُقرأ بحضرته العلية ليلا، فإنه قد انتخب جماعة من العلماء ورتبهم للمبيت عنده للتحصل والمباحثة، والمذاكرة والمحاضرة، ووزعهم على ليالي الأسبوع، بحيث يبيت عنده في كل ليلة منهم طائفة يدرسون

76- حمودة بن عبد العزيز، المصدر السابق، ج1، ص، ص: 300، 301.
77- حمودة بن عبد العزيز، المصدر نفسه، ج1، ص: 190.
78- محمد السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 112.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

كتابا لا يُقرأ إلا في تلك الليلة، وكلما ختم كتابا يبدأ مكانه غيره، فَقُرئ بمجلسه العالي كتب كثيرة منها صحيح مسلم، وسنن أبي داوود، وسنن الترميذي، والموطأ للإمام مالك[79]"، وبعد الانتهاء من قراءة الكتاب المخصص لذلك الدرس بمجلسه تبدأ المباحث ومناظرات بين الفقهاء.

**4.5. عنايته بالعلماء:**

تتفق المصادر على حب علي باشا للعلم والعلماء، إذ يذكر محمود مقديش بأنه كان :" محبا للعلم وأهله، وللصلاح وأهله"[80]، ويذكر كاتبه حمودة بن عبد العزيز بأنه " أظهر من محبة العلم وتعظيمه، وتعظيم أهله وإكرامهم أمرا بَعُد العهد بمثله، فقرب العلماء واصطنعهم، وعظم مراتبهم، ورفع منازلهم"[81]. وقد شملت عنايته للعلماء الجانبين المادي والمعنوي، سيما العلماء الملازمين لمجالسه، حيث كان يظهر لهم احتراما كبيرا، "حتى أنه لم يشرب الدخان في مجلس اجتماعهم"[82]. وكان يكرم العلماء الذين اختارهم لمجلسه و" لا تخلو ليلة من الليالي من بر وإلطاف وإحسان لأهلها من الفقهاء قلَّ ذلك أو جلَّ، بحيث لا ينصرفون إلا بصلة أو تكرمة، وربما منَّاهم وأطلق لهم في اقتراح ما شاءوا مع قضاء حوائجهم، وإجابة مطالبهم، وإجازة شفعاتهم"[83]. وقد طرح الباشا ذات يوم مسألة في مجلسه أجاب عنها أحد العلماء، فأجزل له في العطاء، فقال بعض الحاضرين بأن جواب المسألة مشهور، فأجابهم الباشا بقوله :" إني لم أعظم جائزة الشيخ استغرابا لما أجاب به، وإنما قصدت بذلك تعظيم أهل العلم، وترغيب الناس في تعليمه، والحث عليه"[84].

ومن رفق هذا الباي بالعلماء أنه إذا تضايق من أحدهم "حبسه في المسجد للتدريس، ثم يجري عليه النفقة وما يستحقه"، وقد اجتمع الوثيلاني بالشيخ الهادي بمدينة تونس وكان " علي باشا أميرها اغتاظ عليه... وقد حبسه في جامع الزيتونة في الواقع، أما في الظاهر فلم يكن عليه آثار السجن"[85].

لم يكن اهتمام هذا الباي مقتصرا على العلوم الشرعية بل كان يهتم أيضا بالأدب والأدباء، وذلك ما أدى إلى انتعاش الحركة الأدبية في عهده، وذلك ما يفهم من قول محمد السنوسي بأن

79- حمودة بن عبد العزيز، المصدر السابق، ج1، ص: 191.
80- محمود مقديش، المصدر السابق، ج2، ص: 167.
81- حمودة بن عبد العزيز، المصدر السابق، ج1، ص: 190.
82- محمد السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 113.
83- حمودة بن عبد العزيز، المصدر السابق، ج1، ص:192.
84- محمد بن عثمان السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 113.
85- الحسين الورثيلاني، المصدر السابق، ج2، ص: 758.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

علي باي " أقام في دولته سوق العلوم والأدب"[86]، وكثر الشعراء في عهده "وتنافسوا في مدائحه، بدواوين من الشعر، وأولاهم من الجوائز والصلات ما بعثهم على الاعتكاف في مدائحه"[87].

وقد اتخذ علي باشا إجراءات مهمة لصالح الفقهاء تنوعت بين الرواتب الثابتة والأعطيات المرتبطة بمناسبات معينة، من ذلك " ما أوقفه على المدرسين زيادة على أوقافهم، ليعينهم بذلك على نشر العلم وتعليمه"، كما كان يخصص لهم إعانات مالية في بعض المناسبات الدينية، " وفي كل عام - أيام المولد الشريف- يخرج ألفي ريال تفرق في القرآء المرتبين في الأحزاب، والمؤدبين المنتصبين لتعليم كتاب الله تعالى في المكاتب عادة مستمرة"[88].

كما خصص مرتبات ثابتة للفقهاء المدرسين والطلبة المتأهلين" المتفوقين" بجامع الزيتونة، وبمختلف المؤسسات التي تقام فيها حلقات الدروس بالحاضرة تونس اعتمادا على أموال الجزية، بالإضافة إلى الأموال الأوقاف التي تزيد عن حاجة المصالح التي أوقفت من أجلها، حيث أمر سنة 1183هـ/1769م " فضُبط له مال الجزية بأسره، وكتبت له قائمة بأسماء المدرسين بالعاصمة تونس سواء من أبنائها، ومن الغرباء الواردين عليها لطلب العلم، وأسماء المتأهلين من الطلبة، ووزع عليهم مال الجزية كله، فعيّن لكل مدرس مرتبا في مقابل التدريس، ولكل طالب متأهل مرتبا دون الأول، إعانة لهم على تحصيل العلم، فلم يكفيهم مال الجزية لكثرتهم، فزادهم من فائض الأوقاف المحبسة على مصالح يفضل عنها بعد إقامة ما عينت له[89]. ولم يكتف بتلك المرتبات بل أوقف على المدرسين وقفا مهما من عقار ورثه عن والدته، وجعله تحت تصرف ناظر أوقاف المدرسين يقسم غلته عليهم. ولم تقتصر عناية علي باشا على المدرسين بمدينة تونس عاصمة الإيالة، بل شملت أيضا المدرسين ببقية المدن التونسية القيروان وسوسة وصفاقس، والمنستير، وباجة وقفصة وغيرها، حيث عين لهم المرتبات الواسعة من الجزية وفواضل الأوقاف.

إنَّ هذه الإجراءات المتخذة لصالح التعليم والمعلمين والمتعلمين بجامع الزيتونة ساهمت في زيادة إقبال العلماء والطلبة على التعليم، ويذهب صاحب "الكتاب الباشي" إلى أنّ طلاب العلم والعلماء لما رأوا إحسان الباشا المتتابع للفقهاء، وتعظيمه إياهم "رغبوا في تعليم العلم

86- محمود مقديش، المصدر السابق، ج2، ص: 168.
87- محمد السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 116.
88- حمودة بن عبد العزيز، المصدر السابق، ج1، ص، ص: 305، 309.
89- حمودة بن عبد العزيز، المصدر نفسه، ج1، ص: 204.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وانكبوا عليه، فكثر طلاب العلم، وعمَّر الجامع الأعظم جامع الزيتونة بالدروس في جميع الفنون المتداولة".

وبلغ من اهتمام علي باي بطلبة العلم حد إعفائهم من الخدمة العسكرية، وذلك ما صرح به صاحب "الكتاب الباشي" بقوله:" ومولانا أيده الله تعالى قد سرح رواتب أكثر الطلبة المبتدئين في أوائل بداية طلبهم، وأعفاهم من الخدمة إعانة لهم على طلب العلم، وحرصا على تكثير العلماء"[90].

**6. الباي حمودة باشا؛ ثقافته ومساهمته في الحياة العلمية والدينية:**

حمودة باي هو أكبر أبناء علي باي بن حسين باي، ولد في 18 ربيع الثاني 1173هـ/ديسمبر 1759م، ولما بلغ من العمر 17 سنة تنازل له والده عن الحكم، وتمت بيعته في محرم 1191هـ/ فيفري 1777م حكم عدة سنوات في حياته، ولما توفي والده في 18 جمادى الثانية 1196هـ/ ماي 1782م، تجددت له البيعة، وظل على رأس السلطة إلى وفاته سنة 1229هـ/ 1814م[91]، وهكذا تكون مدة حكمه بصفة انفرادية حوالي اثنان وثلاثون سنة.

**1.6. ثقافته وتكوينه العلمي:**

اعتنى والده علي باي بتعليمه وتكوينه غاية الاعتناء، فعين له مؤدبا حفظ على يديه ما تيسر من القرآن الكريم، ثم عين لتدريسه " إمامه الفقيه العالم أبا محمد باكير، فأخذ عنه ما يلزم من الفقه الحنفي وعلم الكلام، وأخذ عن العلامة حمودة بن عبد العزيز كاتب أبيه ومؤرخ دولته، ما يلزم من النحو والحساب والتاريخ، وتعلم اللغة التركية"[92]. وقد أشار حمودة بن عبد العزيز إلى عناية والده بتعليمه هو وبقية إخوته بقوله :"وقد اعتنى (علي باي) بتهذيب أبنائه السعداء - حفظهم الله تعالى- وتقويمهم في صغرهم، فضمني إليهم سنة ست وثمانين لتعليمهم العلم الشريف، فشرعوا يقرأون عليَّ العربية، وضم إليهم إمامه الشيخ الأجل الفاضل أبا محمد حمودة ابن باكير يعلمهم بالفقه على مذهبهم الحنفي"[93]، كما "ضم إليه من المربين العارفين بفنون السياسة من لهم عنده ذكر"[94]، وقد كان حمودة باشا أكبر أبناء علي باي، ولهذا قلَّده والده "قود

90- حمودة بن عبد العزيز، المصدر نفسه، ج1، ص: 298.
91- أحمد بن أبي ضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، تح: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية. تونس: الدار العربية للكتاب، 1999. ج3، ص: 11؛ محمد السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 118.
92- ابن أبي ضياف، المصدر السابق، ج3، ص: 11.
93- حمودة بن عبد العزيز، المصدر السابق، ج1، ص، ص: 223، 224.
94- محمد السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 118.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

الأجناد، وإمرة العساكر، وفوض إليه أمر الجبايات". وكهذا يتبين حرص علي باي على تعليم ابنه حمودة، وتكوينه عمليا ليكتسب خبرة في تسيير شؤون الدولة.

**2.6. مساهمته في الحياة العلمية والدينية:**

يعد حمودة باشا من أبرز بايات الأسرة الحسينية، وقد ترك إنجازات مهمة في مختلف مجالات الحياة، ولذلك يقول الإتحاف:" ولم تزل المملكة في أيامه ينمو عمرانها... ويعظم شأنها إلى أن فجعت بموته"[95]، ورغم طول مدة حكمه إلا أن المصادر لم تتطرق لإنجازاته في المجال العلمي، فلم تذكر أيًا منها تأسيسه لمدارس أو لأية تدابير مهمة لصالح التعليم، ولكن ذلك لا يعني إهماله الكلي للحياة الدينية والعلمية، ولكن ما بذله في هذا المجال كان دون ما بذله أسلافه. كما أن تدابيره في الحياة العلمية هي امتداد لتدابير والده، إذ سعى للإبقاء على حالة الازدهار العلمي التي كانت في عهد والده، وزاد على ذلك تشجيعه للأخذ من الحضارة الغربية.

ويذهب رشاد الإمام في بحثه حول" سياسة حمودة باشا " إلى أنه ليس هناك " ما يدل على أن حمودة باشا قد بنى المدارس جديدة، أو استحدث أي إصلاح جديد في هذا المجال"[96]، رغم أنه عرف بحبه للعلم والعلماء، وب" تعظيم الشريعة المطهرة، والوقوف عند حدودها في المعاملات"[97]. ومن المنشآت الدينية القليلة المنسوبة لحمودة باشا بناؤه لمسجد قرب القصبة، وهو مسجد صغير عرف باسمه، وأوقف عليه أوقفا، ورتب به قراء لقراءة القرآن الكريم[98]. ومنها المسجد المخصص للجنود الأتراك حسبما يُفهم من إشارات الباجي المسعودي، ذلك أنه أشار إلى اهتمام حمودة باشا بالجيش نظامي سيما الفرق المكونة من الجنود الأتراك الذي بالغ في الاحتفاء بهم، وأنشأ لهم خمسة ثكنات عسكرية (قشل)، ثم قال بأنه :" أحيا المسجد المتقن بلصقه في شعبان سنة 1220 هجرية، ورتب به قراء، وصار يركب له في كثير من الأوقات تطلعا على أحوال الجند وتألفا لهم"[99].

وهناك إشارات تدل على اهتمام هذا الباي بالمجال الديني، والذي لا يمكن فصله عن المجال العلمي في الفترة المدروسة، منها تعظيمه للشريعة الإسلامية، والوقوف عند حدودها، من ذلك احترامه للأحباس وسعيه لعدم المساس بها، ولالتزامه بالعمل بالشريعة في سياسته

95- ابن أبي ضياف، المصدر السابق، مج2، ج3، ص:88.
96- رشاد الإمام، المرجع السابق، ص-ص: 353- 355.
97- ابن أبي ضياف، المصدر السابق، ج3، ص: 87.
98- محمد السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 122.
99- الباجي، المصدر السابق، ص: 261.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

للرعية، ولذلك كلف "شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن حسين بيرم أن يؤلف له كتابا في السياسات الشرعية فألف له رسالته المشهورة". وعلى الرغم أن المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي للإيالة إلا أن حمودة باشا:" حكَّم المذهب المالكي في ثبوت أهلة الشهور"، لأن المالكية يشكلون أغلبية سكان تونس، وذلك ما عبر أنه بقوله :" ويسعنا تقليد إمام دار الهجرة لا سيما أن أهل مذهبه أكثر أهل المملكة "[100].

وقد كان حمودة باشا كأسلافه " محبا للعلماء والصالحين"[101]، كما لازم سيرتهم في احترام العلماء، وتمكينهم من الحياة الكريمة. وكان كوالده يجالس كبار العلماء ويشارك مناقشاتهم، لاسيما المباحثات التي تحدث أثناء انعقاد اجتماع المجلس الشرعي الذي يضم عددا من القضاة والمفتين والعلماء، وقد كان يظهر توقيره لأعضاء المجلس الشرعي، حتى أنه استثناءهم سنة1221هـ / 1806م من أداء الضرائب التي ألزم سائر الناس وحتى أصحاب الزوايا من دفعها[102].

وفيما يتعلق بإعانته للطلبة فيظهر أنه كان مقتنعا أن الرواتب التي كانت تصرف لهم منذ عهد والده كانت كافية، وقد وردت في خزينة وثائق الدولة التونسية قائمة بالرواتب التي كان يدفعها حمودة باشا للعلماء والطلاب، ويرجح رشاد الإمام أن هذه الرواتب كانت استمرارا لما كان يدفعه والده. وقد خالف هذا الباي سيرة والده في علاقته بالأدباء والشعراء، حيث أعرض عنهم وعن مدائحهم، ولهذا انتاب الحركة الأدبية في عهده الركود[103].

وينبغي أن نشير إلى شخصية بارزة في عهد حمودة باشا تركت بعض الأثر في الحياة العلمية؛ وهو وزيره يوسف صاحب الطابع الذي عرفه ب"حب العلماء والصالحين"، كما أنه ترك " آثار خالدة ومرافق جليلة "[104]. وهو الذي تصدى في عهد هذا الباي لبناء المدارس والكتاتيب،

100- ابن أبي ضياف، المصدر السابق، ج3، ص- ص: 82- 88.
101- محمد السنوسي، المصدر السابق، ج1، ص: 122.
102- رشاد الإمام، المرجع السابق، ص: 354.
103- رشاد الإمام، المرجع السابق، ص- ص: 355- 358.
104- محمد الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص، ص: 262، 263.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وأجرى الجرايات الوافرة على رجال العلم، وعلى الطلبة والتلاميذ، وبنى جامعا[105] لا يضاهيه من حيث أهمية حلقات الدروس التي تلقى فيه إلا جامع الزيتونة[106].

وهكذا يتبين أن حمودة باشا لم يكن في الواجهة في تشييد المؤسسات الدينية والعلمية إلا أن هناك أطرافا أخرى منسوبة لدولته قامت بهذه المهمة، كما أن وجود العديد من المدارس والمساجد التي تتكفل بمهمة التعليم كانت كافية، ولهذا صرف الأموال للقيام بمشاريع أخرى.

**- خاتمة:**

يتبين من خلال ما سبق عرضه أنّ البايات الحسينيين الأوائل كلهم كانوا رجال علم وثقافة، وقد كان اثنين منهم من العلماء، وهما الباي علي باشا بن محمد ثاني البايات الحسينيين، والباي محمد الرشيد ثالث البايات الحسينيين. ونقف من خلال هذا البحث على مدى تأثير ثقافة هؤلاء البايات وتكوينهم العلمي في اتجاههم للاهتمام بالعلم ومؤسساته ورجاله. وقد أدى اهتمام الحسينيين المتواصل بالمجال العلمي إلى ظهور حركة علمية مهمة بتونس خلال الفترة الحديثة، فكثرت المؤسسات العلمية والتعليمية بها لاسيما المدارس، وكثر العلماء وطلبة العلم، وتعددت الحواضر العلمية بها.

وأكثر البايات اهتماما بالجانب العلمي هم: حسين باي، وابن أخيه الباي علي باشا، وابنه علي باي، أما الباي محمد الرشيد فكانت مدة حكمة قصيرة، جاءت بعد ظرف عصيب مرت به البلاد نتيجة الحروب بين أبناء حسين بن علي وابن عمهم الباي علي باشا، كما أن هذا الباي كان لا يزال عائدا إلى تونس بعد إقامته لفترة طويلة بالجزائر. أما حمودة باشا فرغم طول مدة حكمه، وقيامه بإنجازات مهمة في مختلف مجالات الحياة، إلا أنه لم يول كبير عناية بالحياة العلمية والدينية، ويبدو أنه اكتفى بإنجازات والده فلم ينجز شيئا جديدا ذا أهمية، ولكن استمرت في عهده التدابير المهمة التي اتخذها والده لصالح العلم والعلماء.

لقد اهتم البايات الحسينيين بمختلف مدن الإيالة إلا أن مدينة تونس عاصمة الإيالة أخذت النصيب الأكبر من اهتمامهم، وذلك ما جعل النشاط العلمي بها يغطي على نشاط الحواضر العلمية الأخرى، كالقيروان وباجة، صفاقس، كما غطى النشاط التعليمي بجامع الزيتونة على نشاط المساجد والمدارس الأخرى المنتشرة في كامل أرجاء الإيالة.

---

105- يعد جامع الحلفاويين من أبرز المنشآت الدينية التي شيدها هذا الوزير، وقد حدث أن توافق المولد النبوي مع يوم الجمعة في سنة 1229هـ، فأقيمت به صلاة الجمعة، وحضر حمودة باشا " الصلاة به في وجوه دولته، وكان يوما مشهودا ". ينظر: الباجي، المصدر السابق، ص: 263.

106- رشاد الإمام، المرجع السابق، ص:355.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

ومن النتائج المتوصل إليها من خلال ها البحث هو مدى حرص هؤلا ء البايات على الاهتمام بالمذهب المالكي مذهب غالبية السكان، كاهتمامهم بالمذهب الحنفي المذهب الرسمي للدولة، فأسسوا وجددوا المساجد والمدارس وعينوا عليها علماء من المذهبين المالكي والحنفي.

**- البيبليوغرافيا:**

**- المصادر:**

- الباجي محمد بن أبي بكر المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تح: محمد زينهم محمد عزب. القاهرة: دار الآفاق العربية، (ط1)، 2012.

- تونس في القرن السابع عشر، وثائق الأوقاف في عهد الدايات والبايات المراديين، تح: أحمد السعداوي. منوبة (تونس): منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، 2011.

- حمودة بن محمد بن عبد العزيز، الكتاب الباشي، تح: محمد ماضور. تونس: الدار التونسية للنشر، 1970.

- خوجة حسين، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تح: الطاهر المعموري. ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب، 1975.

- السنوسي محمد بن عثمان، مسامرة الظريف بحسن التعريف، تح: محمد الشاذلي النيفر. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1994.

- بن أبي ضياف أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، تح: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية. تونس: الدار العربية للكتاب، 1999.

- مقديش محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح: علي الزواوي ومحمد محفوظ. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1988.

- النيفر محمد، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1996.

- الورثيلاني الحسين بن محمد، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، (ط1)، 2008.

**- المراجع:**

- الطويلي أحمد، في الحضارة العربية التونسية. سوسة (تونس): منشورات دار المعارف للطباعة والنشر.

**- الرسائل العلمية الغير مطبوعة:**

- الإمام رشاد، سياسة حمودة باشا في تونس 1782- 1814م، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة، بيروت: الجامعة الأمريكية، دائرة التاريخ.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

- ملحق: مخطط يبين بايات الأسرة الحسينية منذ 1705م إلى 1814م.